المصدر: الـــــوطـــــن

التاريخ : ١٩٨٤/١/٢٦

مصر مـــن الثـــورة والتحـــرر ... الـــى السلام باهـــظ الثمـــن

السادات ... قتلـــه المصريـــون
... ولبـــس عليـــه الغـــرب ثـوب الحـداد

● حركـــة التصحيـــح الساداتيـــة: كيـــف .. ولمـــاذا .. وايـــن قادت؟

لا شك في ان وفاة الرئيس المصري عبدالناصر تركت فراغا كبيرا في الحياة السياسية المصرية ، وربما العربية ايضا . ففي تلك الفترة التي امتدت الى ثمانية عشر عاما كان هو الشخصية المركزية في الثورة المصرية وفي العالم العربي . ولم يكن ثمة احد قادرا على منافسته او حتى مجاراته . ذلك ان الشخصيات العظيمة فريدة في نوعها ، وقلما تتكرر خلال فترة زمنية قصيرة . لهذا ، فمن الطبيعي ان ينتهج الخلفاء سياسات مغايرة ذات اسلوب خاص .

وكان انور السادات احد الضباط الاحرار الذين عملوا بتواضع في ظل عبدالناصر ، والبعض يقول انه كان قلبا . وقد شغل منصب سكرتير المؤتمر الاسلامي ورئيس مجلس الامة . وفي ديسمبر ١٩٦٩ عين نائبا للرئيس ولذلك عندما توفي عبدالناصر تولى السلطة من بعده . وليس من الواضح لماذا اختاره عبدالناصر في وقت اعرب السادات عن تردده المؤقت في قبول هذا الاختيار !! ومع ذلك فلم تمر فترة طويلة حتى اندفع الى هذا الدور ، وبدأ يتمتع بممارسة السلطة .

السادات لا يصدق نفسه

وبعد فترة قصيرة اظهر قوة غير متوقعة ، ومذهلة ايضا ، في توطيد نفسه . فقد ظن زملاؤه الاخرون في الحكومة انه يمكن جعله رئيسا صوريا ، ولكنهم ذهلوا حينما بدأ في اتخاذ مبادرات مستقلة ، بما فيها التقارب الجديد مع الولايات المتحدة وتأييده لمحاولة اخرى من الوحدة العربية . ولم يكن السادات يصدق نفسه بانه ينتهج سياسات عبدالناصر الوحدوية ، فهو استخدم الوحدة العربية كوسيلة ذكية لمعرفة خصومه . وكان يتزعم هؤلاء الخصوم على صبري نائب رئيس الوزراء والامين العام السابق للاتحاد الاشتراكي العربي . ففي احد اجتماعات اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكي العربي في ربيع العام ١٩٧١ قدم علي صبرى وزملاؤه استقالاتهم احتجاجا على الوحدة ، وحاولوا تنظيم معارضة جماهيرية ضد السادات في الاتحاد الاشتراكي العربي . ولكنهم فشلوا في ذلك لانهم لم يستطيعوا الحصول على التأييد الجماهيري ، كما لم تكن تجمعهم وحدة الاهداف .

ومهما يكن من امر ، فالسادات تحرك بسرعة ، والقى القبض عليهم ، وانهى بذلك ما اطلق عليه «كابوس الصراع المركزي على السلطة» . وفي الوقت نفسه عمل السادات على تقوية مركزه داخل الجيش ووعده بدور قوي ومشرف في الدولة .

وبدأ السادات يعمل في ظل ثلاث حقائق قائمة : العلاقات القوية مع الاتحاد السوفياتي ، وما اسماه «بالشعارات الاشتراكية الفارغة التي شوهت العدالة الاجتماعية» ، والاحتلال الاسرائيلي لاراضي سيناء مع ما ينطوي عليه هذا الاحتلال .

وفي بداية ديسمبر ١٩٧٠ رفع الامر القضائي بالحجز على الملكية الخاصة ، وهي اشارة الى المزيد من «التحررية» في المجالين السياسي والاقتصادي وكانت علاقته مع السوفيات غير طيبة منذ البداية ، ولكنه كان مرتبطا بحتمية استمرار هذه العلاقة باعتبار ان عبدالناصر قد سلح الجيش المصري باسلحة سوفياتية ، وان اي تغيير او تنويع سيستغرق بالضرورة فترة زمنية طويلة . ولم تكن لدى السادات خطط فورية ، ولذلك فكثيرا ما حاول استنفاذ صبر السوفيات .

وفي مايو ١٩٧١ ، وبعد القاء القبض على خصومه الذين اتهمهم بانهم عملاء موسكو ، وقع السادات معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفياتي . غير ان هذه المعاهدة لم تمنع حدوث خلافات كبيرة بين الدولتين حول تزويد الاسلحة . وبلغ الشعور بالاحباط ذروته عند السادات في يوليو ١٩٧٢ عندما لم يحصل على الاسلحة التي وعد السوفيات بتزويدها . ومما اثار دهشة الغرب ان السادات طلب مغادرة جميع المستشارين السوفيات «حوالي ١٥ الف رجل» من بلاده واصر على ضرورة قيام المصريين وحدهم بحراسة وامتلاك المعدات العسكرية في البلاد . وفي نظر السادات فان السبب في ابعاد المستشارين هو انه اراد ان تكون الحرب القادمة مع اسرائيل مصرية خالصة .

ولما تدهورت العلاقات مع الاتحاد السوفياتي تحول السادات الى الغرب للحصول على المساعدات ، وبخاصة

الى الولايات المتحدة التي يعتبرها الدولة الوحيدة القادرة على ممارسة الضغط على اسرائيل . وكان عبدالناصر قد طلب من السادات اعطاء الاولوية لطرد الاسرائيليين من سيناء المحتلة . وبعد حرب الاستنزاف جرى توقيع اتفاقية لوقف اطلاق النار في اغسطس ١٩٧٠ . وكمحاولة من جانبه لمتابعة الطريق اعلن السادات في فبراير ١٩٧١ ما وصفه بمبادرة للسلام . فقد ابدى استعدادا لتوقيع معاهدة سلام مع اسرائيل وفتح قناة السويس مقابل انسحاب اسرائيلي جزئي واعادة عبور القوات المصرية الى سيناء .

شجاعة السادات البالغة ؟!!

والحق ، فان الاعتراف باسرائيل كان خطوة هائلة تحتاج الى شجاعة بالغة . اما الصدمة الاخرى للرأي العام فكانت في دعوة وزير الخارجية الاميركي وليام روجرز للقيام بزيارة الى القاهرة ، وهذا ما فعله روجرز في مايو . وبدا كانه توصل الى اتفاق مع السادات ، ولكنه لم يتمكن من اقناع الاسرائيليين بان مصر كانت جادة . ويقال ان السادات بدأ يصحو من اثر الصدمة ، وترك جانبا مشروع روجرز ووقف اطلاق النار ، واطلق على العام ١٩٧١ عام القرار الذي سيضع فيه حدا للاحتلال الاسرائيلي ولم يصدق احد بانه سيفعل شيئا ، ومر شهر ديسمبر ١٩٧١ دون حدوث شيء .

وفي مايو ١٩٧٢ اجتمع الرئيس نيكسون مع بريجينيف ، واقتنع السادات بان الدولتين ستحاولان منع حدوث حرب جديدة في الشرق الاوسط ، اي الابقاء على حالة الجمود . وعندئذ ادرك السادات ان الحرب طريق الخلاص وبدأت الاسلحة السوفياتية في الوصول وشرع العسكريون في التخطيط للحرب .

وفي ٦ اكتوبر ١٩٧٣ عبرت القوات المصرية قناة السويس وامطرت التحصينات الاسرائيلية بوابل من النيران في الضفة الشرقية من خط بارليف .

كان الهجوم مفاجئا ، الامر الذي اربك القوات الاسرائيلية . وبعد استيعاب الضربة الاولى تمكنت القوات الاسرائيلية من عبور قناة السويس ، مستفيدة بذلك من ضعف الاتصالات المصرية ، والبدء في تطويق الجيش الثالث المصري وفي الحدود الشمالية استطاع الجيش الاسرائيلي وقف تدفق القوات السورية .

ومع ذلك ، فقد اقترب الاسرائيليون في هذه الحرب من حافة الهزيمة ، ولم ينقذهم غير الجسر الجوي الاميركي . وفي ٢٠ اكتوبر هدد الاسرائيليون بتجويع الجيش الثالث . وذلك رغم ان المصريين قالوا ان الامر ليس خطيرا ، وان القوات الاسرائيلية هي الواقعة بين اسنان الكماشة واخيرا ، وافق الجانبان على دعوة من الامم المتحدة بوقف اطلاق النار في ٢٢ اكتوبر ، كما وافقت سوريا على ذلك ايضا في ٢٩ اكتوبر .

ومنذ ذاك ، بدأ الجدل يتركز حول نقطة واحدة : من انتصر في هذه الحرب ؟ في نظر مصر ، كانت حرب اكتوبر انتصارا حاسما ، فلم ينقذ الاسرائيليين غير الجسر الجوي الاميركي . ومن المؤكد ان اسرائيل قد شعرت بالذهول تجاه الهجوم المصري المخطط جيدا . وتكبد الجانبان خسائر فادحة في الارواح والمعدات «اسرائيل خسرت ٢٥٥٢ رجلا بين قتيل وجريح ،

ومصر خسرت ٩ الاف قتيل و ١١ الف جريح» . وكان السادات مستعدا للخسائر ، واراد ان يهز اسرائيل ، وان يثبت للعالم بان الجندي العربي قادر على التخطيط والقتال . كانت حربا من اجل كسب الاحترام واصابة الدولتين العظميين بالصدمة . لقد منحت السادات الفرصة للبدء في التفاوض مع الاسرائيليين من مركز القوة ، ووضعت الاقتصاد العالمي امام عامل جديد وهو سلاح النفط . ذلك ان منظمة الاقطار العربية المنتجة للنفط فرضت حظرا على الامدادات النفطية للولايات المتحدة على امل ان يؤدي ذلك الى قيام اميركا بتعديل سياساتها المؤيدة لاسرائيل والمعادية للعرب .

وفي مصر ، اعتبر السادات «بطل العبور» واصبح زعيما وطنيا . الا ان انتصاره جاء بالولايات المتحدة الى مصر وحضورها الدائم في المنطقة بحثا عن السلام . وهذا احد اهداف السادات الرئيسية .

الصديق الاميركي ؟!

ووضع السادات ثقته ، وربما كلها ، في الولايات المتحدة ، اعتقادا منه بانها تملك ٩٩ بالمائة من اوراق اللعبة . وبدأ وزير الخارجية الاميركي هنري كيسنجر في الاعداد لمؤتمر يعقد في جنيف في ديسمبر بين مصر والاردن واسرائيل بمشاركة اميركية سوفياتية لمناقشة فك الاشتباك في قناة السويس . ولم يحقق هذا المؤتمر الشيء الكثير . ولكن امكن التوصل الى فك الاشتباك في جبهة السويس في يناير ١٩٧٤ من خلال جهود كيسنجر المكوكية بين اسوان والقدس . وفي ٢١ فبراير تحركت القوات الاسرائيلية من غرب القناة الى منطقة معينة في صحراء سيناء . وهذا التحرك ادى الى استئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة .

ثم بدأ كيسنجر جولة مكوكية ثانية في مارس ١٩٧٥ ، ولكنها توقفت بسبب التعنت الاسرائيلي في ابريل من ذلك العام . وفي غاية الامر ، جرى توقيع الاتفاقية الثانية لفك الاشتباك في سبتمبر ١٩٧٥ تقوم اسرائيل على اساسها بالانسحاب الى نقطة ابعد في عمق سيناء مقابل اعادة حقول النفط وتعهد مصر بعدم استخدام القوة مرة اخرى .

الوضع الاقتصادي في ظل السلام ؟!

وفي الوقت نفسه ، فبينما واجه السادات مشكلته الدولية الكبرى ، فقد صارع ايضا مشاكله الاقتصادية في الداخل . وحصل على مساعدات اميركية كبيرة وعلى بعض الاسلحة ، ولكنه حاول تأجيل دفع الديون السوفياتية . واعتمدت سياسة السادات على مظهرين متداخلين : هما سلام مع اسرائيل من اجل مواصلة حركة التطور الاقتصادي في الداخل في جو من الاستقرار والامن .

وفي اواخر العام ١٩٧٦ طلبت مصر الحصول على قرض من البنك الدولي . ولكن البنك اشترط تقليص حجم الاعانات المالية الحكومية لبعض السلع الاساسية . وكمحاولة لارضاء البنك اعلنت الحكومة عن وقف الاعانات عن عدة سلع . ومن بينها الدقيق والسكر والرز وزيت القلي . بالاضافة الى الغاء

الحوافز التشجيعية وزيادات الاجور

وكانت النتيجة حدوث هزة فورية ففي ١٨ و ١٩ يناير وقعت «اعمال شغب» واسعة النطاق امتدت من اسوان حتى الاسكندرية ووصفها الكثيرون بانها

اعنف انتفاضة منذ هب الشعب المصري ضد بريطانيا في العام ١٩١٩ . فهي استوجبت ، لاول مرة ، نزول الجيش الى الشوارع منذ العام ١٩٥٢ . ومن الواضح ان العداء لم يكن موجها ضد

الاجانب ، بل ضد مؤسسات مثل مكاتب الاتحاد الاشتراكي العربي ومراكز الشرطة والنوادي الليلية . لقد كانت انتفاضة المحكومين ضد الحاكمين .

واضطرت الحكومة الى استخدام الجيش لقمع اعمال الشغب .وفي القاهرة وحدها قتل ٧٧ شخصا . وفي مواجهة ذلك اتخذت الحكومة قرارا بالتراجع عن اجراءاتها التقشفية ، وانتصر المتظاهرون الذين كانوا يهتفون : بطل العبور ، اين الفطور ؟

واصابت السادات الدهشة . وبينما ادرك ان الاعانات كانت السبب الرئيسي في حدوث هذه الانتفاضة ، فقد تضلع لمعاقبة كبش الفداء ، وانحى باللائمة على اليساريين والماركسين والقى القبض على المئات منهم .

واستمر السادات في متابعة اهدافه الخارجية ووعد الفقراء بحل مشاكلهم واعتقد بان مثل هذا الحل لن يتحقق الا من خلال تحقيق السلام مع اسرائيل . وتطلع الى مؤتمر جنيف من اجل

مواصلة مساعي السلام مع اسرائيل . واصبح مناحيم بيغن ، المعروف بتشدده ودفاعه عن التوسع الاسرائيلي ، رئيسا لوزراء اسرائيل . وافق بيغن على

تطوير حركة بناء المستوطنات الاسرائيلية في الضفة الغربية والقيام بغارات مكثفة في جنوب لبنان ورفض التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية .

وبالنتيجة وجد السادات نفسه مندفعا نحو مبادرة دراماتيكية . ذهب الى القدس في نوفمبر ١٩٧٧ لكي يعرض ،

شخصيا ، قضيته على العدو . واصيب الرأي العام العربي بالصدمة بينما اخذت دول العالم الاخرى تراقب الموقف بذهول .

وكان الهدف من زيارته «تحقيق سلام دائم يقوم على العدل بين اسرائيل وجميع الدول العربية ، وايجاد حل عادل للمشكلة الفلسطينية» . لقد كان السادات صريحا في خطابه ، وتحدث عن كافة الصعوبات التي نشأت بين اسرائيل والعرب ، وطالب في مقابل ذلك بالسلام وبحدود امنة وبالانسحاب من اراض احتلت في العام ١٩٦٧ «بما فيها القدس الشرقية» وبحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم واقامة الدولة .

وفي رده على خطاب السادات لم يشأ بيغن تقديم اية التزامات ، وفي الحقيقة فانه لم يحرك عملية السلام الى الامام خطوة واحدة . ومن هنا كان تدخل الرئيس الاميركي كارتر ضروريا . وقام بزيارة الى كل من مصر واسرائيل في يناير ١٩٧٨ للبدء في الخطوات التي ادت الى اجتماع الدول الثلاث في منتجع كامب ديفيد في سبتمبر وبدات المحادثات بطيئة ، وتعثرت كثيرا بسبب الخلافات حول المستوطنات الاسرائيلية

في الضفة الغربية والدولة الفلسطينية . فقد كان بيغن يعارض تقديم اي تنازل لمنظمة التحرير الفلسطينية ، والاكثر من ذلك بدا كأنه يمضي قدما نحو فرض المزيد من العزلة على مصر حين وافق على بناء المزيد من المستوطنات في فبراير ١٩٧٩ . وعقد اجتماع اخر في كامب ديفيد في الشهر نفسه . وامكن تحقيق بعض التقدم في مجالات معينة . وفي مارس جرى توقيع معاهدة سلام بين مصر واسرائيل . ووافقت اسرائيل على الانسحاب من سيناء في غضون ثلاث سنوات واقامة علاقات تجارية ودبلوماسية طبيعية .

وتنص المعاهدة على السماح للسفن الاسرائيلية بالمرور من قناة السويس ، وقيام الولايات المتحدة بمراقبة سيناء مع ما يستتبع ذلك من عدم قدرة مصر على التحرك بحرية تامة في المنطقة .

لقد حققت مصر اشياء كثيرة ، ولكن مناحيم بيغن كان يكرر القول عن اشياء بغيضة وغامضة لم يلتفت المؤتمرون الاخرون اليها : استمرارية بناء المستوطنات الاسرائيلية بعد ثلاثة شهور ، وبقاء القدس موحدة ، وعدم السماح باقامة دولة فلسطينية مستقلة وليس من الواضح ما اذا كان السادات قد اخذ هذا القول على محمل الجد او انه اعتبره موقفا تفاوضيا . ورأت الدول العربية الاخرى هذا القول بأنه جوهر المفاوضات ، واتهمت السادات بانه وقع معاهدة منفردة مع اسرائيل وتخلى عن القضية الفلسطينية . وطردت مصر من المعسكر العربي ونقلت مكاتب جامعة الدول العربية الى تونس وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع مصر .

وفى ابريل ١٩٧٩ مرت اول سفينة اسرائيلية من قناة السويس ، وعادت الى مصر مدينة العريش المحتلة . وفي فبراير ١٩٨٠ فتح الاسرائيليون اول سفارة لهم في القاهرة .

وبعد توقيع الاتفاقية واجه السادات وقتا عصيبا . وبالرغم من ان الشعب المصري وافق على المعاهدة في استفتاء عام في مايو ١٩٧٩ الا ان المعارضة كانت شديدة . ففي مجلس الشعب اعلن ١٣ عضوا عن معارضتهم لها ، اما الاحزاب والمجموعات الاخرى ابتداء من الاخوان المسلمين وانتهاء بالماركسيين فقد اعربت عن رفضها لهذه المعاهدة .

وهكذا ، فالسادات حقق السلام على حساب العزلة والاعتماد الكامل على الولايات المتحدة . واصبحت العلاقات مع الاتحاد السوفياتي حساسة للغاية ، ولكن ايا من الدولتين لم ترغب في قطعها . وبالطبع ظل السوفيات يتساءلون عما اذا كانت مصر نسيت المساعدات السوفياتية في العام ١٩٥٦ ، وتمويل بناء السد العالي ، والجسر الجوي من الاسلحة في العام ١٩٧٣ . وفي مقابل الانسحاب من سيناء حققت اسرائيل الكثير من اهدافها : السلام مع اقوى دولة عربية ، وحق المرور في قناة السويس ، وحق الاتجار والاستثمار في مصر وحصل السادات على بعض الاراضي وعلى الاسلحة والمساعدات الاميركية . واستمرت اسرائيل في رفضها التفكير بصورة جادة في مسالة الحكم الذاتي الحقيقي للفلسطينيين او التفاوض مع منظمة التحرير

الفلسطينيـــة . وتضاعـــف عدد المستوطنات في الضفة الغربية ، واعلنت اسرائيل عن اعتبار القدس عاصمة موحدة وابدية لها .

وقد ادى الافتقار الى التقدم ، وعزلة مصر في العالم العربي ، وعدم حدوث تحسن مادي حقيقي في حياة الفقراء ، الى انحسار شعبية السادات ، ورد على الانتقادات بوضع الخصوم في السجون وفـرض ، رقابـة مشددة علـى المطبوعات . وفي العام ١٩٨١ قام بعمليات الاعتقال بالجملة اعتقادا منه بان هؤلاء يعملون ضده . وبينما كان شخصية محبوبة في الغرب ، اصبح اكثر عزلة في مصر . ولقد فوجيء العالم باغتياله في اكتوبر ١٩٨١ وشعر العرب بالفرحة ، ولبس الغرب ثوب الحداد .